

تفسير سورة غافر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٤٨﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٤٩﴾﴾

ربع

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن - من الله ذي العزة والعلم، فلا يرام جنبه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابيه. وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه. وقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن تمرد وطفى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله، وبغى. وهذه كقوله تعالى: ﴿لَنَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴿[الحجر: ٤٩، ٥٠]﴾، يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ قال ابن عباس: يعني: السعة والغنى. وهكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال يزيد بن الأصم: يعني: الخير الكثير. وقال عكرمة: ذي المن. وقال قتادة: ذي النعم والفواصل. والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المن والأنعام، التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ الآية [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ أي: المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]. جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إني قتلت، فهل لي من توبة؟ فقرأ عليه: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ وقال: اعمل ولا تياس. رواه ابن أبي حاتم - واللفظ له - وابن جرير (١). وروى ابن أبي حاتم عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفتد إلى عمر بن الخطاب ففقد عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، تابع في هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، وأن يتوب الله عليه. فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حلزني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي. ورواه الحافظ أبو نعيم وزاد: «فلم يزل يردد ما على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحبا لكم زل رلة فسددوه ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه» (٢).

(١) ابن جرير في التفسير (٢٤ / ٢٧). (٢) حلية الأولياء (٤ / ٩٧).

﴿ مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ ﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٤﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٥﴾

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إلا الذين كفروا﴾ أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿فلا يغرزك تقلبهم في البلاد﴾ أي: في أموالها ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿لا يغرزك قلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل ثم ماوأهم جهنم وبئس المهاد﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال عز وجل: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ [لقمان: ١٢٤].

ثم قال تعالى مسلماً لنبية محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء، فإنه قد كذبهم أمهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كذبت قبلاًهم قوم نوح﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿والأحزاب من بعدهم﴾ أي: من كل أمة ﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ أي: مآحلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي. وقوله: ﴿فأخذتهم﴾ أي: اهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿فكيف كان عقاب﴾ أي: فكيف بلغك عذابي لهم، ونكالي بهم؟ قد كان شديداً موجماً مؤلماً. قال قتادة: كان والله شديداً.

وقوله: ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ أي: كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والآخرى؛ لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٦﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾ وَقِهِمُ السَّخَّاتَ وَمَنْ نَقِيَ السَّخَّاتَ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة، ومن حوله من الكروبيين، بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أي: يقرون بين التسيب الدال على نفى النقائص، والتحميد المقضى لإثبات صفات المدح، ﴿ويؤمنون به﴾ أي: خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿يستغفرون للذين آمنوا﴾ أي: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقبض الله سبحانه ملائكة المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهور الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، كانوا يؤسسون على دعاء المؤمن لأخيه بظهور الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهور الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثل» (١).

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ صدق أمية في شيء من شعره، فقال:

رَجُلٌ وَثُورٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ
وَالنَّسْرُ لِلْآخِرَى وَكَيْتٌ مُرْصَدٌ

فقال رسول الله ﷺ: «صدق». فقال:

وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ
تَأْتِي فَمَا تَطْلُعُ لَنَا فِي رِسْلِهَا
حَمْرَاءُ يُصْبِحُ لَوْنُهَا يَتَوَرَّدُ
إِلَّا مَعْدَبَةٌ وَلَا تُجْلَسُ

فقال النبي ﷺ: «صدق» (١). وهذا إسناد جيد: وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة،

فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية، ودلالة هذا الحديث؟ وبين

الحديث الذى رواه أبو داود عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنت بالبطحاء فى عصابة فىهم رسول

الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب. قال: «والزمن؟»

قالوا: الزمن. قال: «والعنان؟» قالوا: والعنان - قال أبو داود: ولم اتقن العنان جيداً - قال: «هل تدرون

بُعْدَ ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندرى. قال: «بُعْدَ ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث

وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عدَّ سبع سموات «ثم فوق السماء السابعة بحر، بين أسفله

وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهن وربكهن مثل ما بين سماء إلى

سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله، تبارك وتعالى،

فوق ذلك» ثم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن غريب. وهذا يقتضى أن حملة

العرش ثمانية، كما قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: «سبحانك اللهم

وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك». وأربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد

على عفوك بعد قدرتك».

ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رُحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أى: رحمتك تسع

ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ

تَابُوا وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ﴾ أى: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأتابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم

به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: ورحزهم عن عذاب الجحيم، وهو

العذاب الموجه الأليم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: اجمع

بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع فى منازل متجاورة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ

ذُرِّيَّاتُهُمْ (٢) بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أى: ساويتنا بين الكل فى

المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالى حتى يساوى الدانى، بل رفعتنا ناقص العمل، فساويتنا بكثير

العمل، تفضلاً منا ومنة. قال سعيد بن جبیر: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه، وأين

هم؟ فيقال: إنهم لم يلقوا طبقتك فى العمل. فيقول: إنى إنما عملت لى ولهم. فيُلحِقُونَ به فى

الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبیر هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

(١) المسند (٢٣١٤) وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح».

(٢) هى قرأه، كما مضى بيانه عند تفسير الآية (١٦٤) من سورة الانعام.

وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ آتَيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا آتَيْنَا فَأَعْرَفْنَا بِدُثُونِنَا فَأَهْلَ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِمَا عَصَى اللَّهُ وَاذْهَبَ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ فَإِنَّهُ لَمُشْرِكٌ بِخَالِكِ الْكِبْرِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم مآئِنَهُ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾

وقوله: ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي: الذي لا يمانع ولا يبالغ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم في أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرتك. ﴿ وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي: فعلها أو وبالها من وقعت منه، ﴿ وَمَنْ تَتَى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ فَذَرَّ رَحْمَتَهُ ﴾ أي: لطف به ونجته من العقوبة ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفُرْقَانُ الْعَظِيمُ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا آتَيْنَا فَأَعْرَفْنَا بِدُثُونِنَا فَأَهْلَ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِمَا عَصَى اللَّهُ وَاذْهَبَ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ فَإِنَّهُ لَمُشْرِكٌ بِخَالِكِ الْكِبْرِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم مآئِنَهُ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: إنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظنون، وذلك عندما باسروا من عذاب الله ما لا قبل لأحد به، فماتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة، التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً، نادوهم نداءً بأن مقت الله لهم في الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المذبذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة. قال قتادة في قوله: ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ يقول: لَمَقْتُ الله أهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عابوا عذاب الله يوم القيامة. وهكذا قال الحسن البصري، ومجاهد، والسدي، وذر بن عبد الله الهمداني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبري، رحمة الله عليهم أجمعين .

وقوله: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا آتَيْنَا فَأَعْرَفْنَا بِدُثُونِنَا فَأَهْلَ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ﴿١١﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقاتدة، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية .

والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله، عز وجل، في عرصات القيامة، كما قال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْغَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِنَا فَعْمَلٌ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعابوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ نُفِثُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسبها ومقامها وأغلغلاها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿ وَهُمْ يَعْطَرُونَ فِيهَا رِبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا الْعَذَابَ لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِدْنَا

فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْشَوْا لَهَا وَلَا تَكْفُرُوا ﴿ [المؤمنون : ١٠٧ ، ١٠٨] ، وفي هذه الآية الكريمة تلتفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مقدّمة، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِأَنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أى: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذى كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإننا ظالمون. فأجيبوا الا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تجحده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ ، أى: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَرَّذُوا تَعَاذُوا لِمَا نُفِوا عَنْهُ وَاتَّهَمُوا لَكَاذِبُونَ﴾ [الانعام : ٢٨] . وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أى : هو الحاكم فى خلقه ، العادل الذى لا يجور، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: يظهر قدرته لخلقته بما يشاهدونه فى خلقه العلوى والسفلى من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعمه، وروائح وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فأتت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أى: يعتبر ويفكر فى هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَنْ يَبْغِ﴾ أى: من هو بصير منيب إلى الله، عز وجل .
وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أى: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين فى مسلكتهم ومذهبهم. روى الإمام أحمد عن أبى الزبير قال: كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» قال: وكان رسول الله ﷺ يهتل بهن دبر كل صلاة. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي (١). وقد ثبت فى الصحيح عن ابن الزبير أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» (٢).

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١﴾
يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿٢﴾ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٣﴾ الْيَوْمَ نَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته

(١) السنن (٤/٤) ومسلم (١٣٩/٥٩٤) وأبو داود (١٥٠٦) والنسائي فى الكبرى (١٢٦٢).

(٢) مسلم (١٣٩/٥٩٤).

كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةً﴾ [المعارج: ٣، ٤]، وهذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، في قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، كتفوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [التحل: ٢٢]، وكتفوله: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزَّلَ رَبُّ الْعَالَمِينَ نَزْلًا بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]؛ ولهذا قال: ﴿لَنُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال ابن عباس: ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده. وقال: يلتقى فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقى فيه العباد. وقال قتادة، والسدى وغيرهما: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضاً: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق. وقد يقال: إن يوم التلاق هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر. كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أى: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكتهم ولا يظلمهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾: أى: الجميع فى علمه على السواء. ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم فى حديث ابن عمر: أنه تعالى يطوى السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ (١). وفى حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حيثئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه (٢).

وقوله: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يخبر تعالى عن عدله فى حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها، وبالسئنة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ - فيما يحكى عن ربه عز وجل - أنه قال: «يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال -: يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (٣). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى: يحاسب الخلاق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِحُكْمٍ إِلَّا كَتَفَرًا وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةً بَالِغَةً﴾ [الفر: ١٥٠].

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظَمِينَ مِمَّا لَلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ رِسْقًا وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾

يوم الآفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقتربها، كما قال تعالى: ﴿أُزِفَتْ

(١) مفسى تخريجه عند الآية (٦٧) من سورة الزمر.

(٢) مفسى بتمامه وتخريجه عند الآية (٧٣) من سورة الانعام. (٣) مسلم (٥٥/٢٥٧٧).

الْأَزَلَّةَ . لَيْسَ لَهَا مِنْ فَوْنِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿ [النجم : ٥٧ ، ٥٨] وقال : ﴿ اقْرَبْتِ السَّاعَةَ وَأَنْشَقِ الْقَمَرَ ﴾ [المقمر : ١] ، وقال : ﴿ اقْرَبِ لِلنَّاسِ حِسَابَهُمْ ﴾ [الانبيا : ١] وقال : ﴿ أَنْتَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ ﴾ [النحل : ١] وقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَبَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴾ [الملك : ٢٧] .

وقوله : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِئِينَ ﴾ قال قتادة : وقتت القلوب في الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة ، والسدى ، وغير واحد : ومعنى ﴿ كَاطِئِينَ ﴾ أى : ساكتين ، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] . وقال ابن جرير : ﴿ كَاطِئِينَ ﴾ أى : باكين . وقوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أى : ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم يتفهمهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

وقوله : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ : يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء ، جليلها وحقيقتها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم ، فيستحيوا من الله حق الحياء ، ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، وأنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوى عليه خيايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس في قوله : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ : وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غَضَّ ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غَضَّ ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودَّ لو اطلع على فرجها . وقال الضحاك : ﴿ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ : هو الغمز ، وقول الرجل : رأيت ، ولم ير ؛ أو : لم أر ، وقد رأى . وقال ابن عباس : يعلم تعالى من العين في نظرها ، هل تريد الحيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد ، وقتادة . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ : يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا ؟ وقال السدى : ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ أى : من الوسوسة .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أى : يحكم بالعدل . قال ابن عباس : قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ . وهذا الذى فسر به ابن عباس في هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْأَلُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَبُوا بِالْحِسَابِ ﴾ [النجم : ٣١] . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : من الأصنام والأوثان والأنداد ، ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ أى : لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أى : سميع لأقوال خلقه ، بصير بهم ، فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَحْذَرْتُمْ اللَّهَ بِدُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَحْذَرْتُمْ اللَّهَ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الاسم المكذبة بالانبياء ، ما حل بهم من العذاب والنكال ، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿ وَأَنْتَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : أثروا فى الأرض من البنايات والمعالم والديارات ، ما لا يقدر عليه هؤلاء ، كما قال : ﴿ وَوَلَقَدْ مَكَاتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَاتَهُمْ فِيهِ ﴾ [الاحقاف : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَأَنْتَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ

مِمَّا عَمَرُوها» [الروم: ٩] أى: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، اخذهم الله بذنوبهم، وهى كفرهم برسولهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ أى: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق.

ثم ذكر علة اخذه إياهم وذنوبهم التى ارتكبوها واجترموها، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَاتِيهِمْ وَسَلْمُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالدلائل الواضحات والبراهين القططعات ﴿فَكَفَرُوا﴾ أى: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ أى: أهلكتهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: ذو قوة عظيمة ويطش شديد، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: عقابه اليم شديد وجيع. اعادنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمٰنَ وَقُرُوٰتٍ فَعَالُوٓا سٰحِرًا كَذٰبًا ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ أَلْحَقٍ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ اِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُوٓىٔ اَقْتُلْ مُوسٰى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ اِنِّىٓ اَخَافُ اَنْ يُبَدِّلَ دِيْنَكُمْ اَوْ اَنْ يُظْهِرَ فِى الْاَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسٰى اِنِّىٓ عُدْتُ بِرَبِّىٓ وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى مسلينا لنبىه ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، عليه السلام، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البيّنات، والدلائل الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ والسلطان هو: الحجّة والبرهان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو: ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَامَانَ﴾ وهو: وزيره فى مملكته ﴿وَقَارُونَ﴾ وكان أكثر الناس فى زمانه مالا ونجارة ﴿فَعَالُوٓا سٰحِرًا كَذٰبًا﴾ أى: كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً موهماً كذاباً فى أن الله أرسله. وهذه كقولهم: ﴿كَذٰلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رُّسُوْلٍ اِلَّا قَالُوٓا سٰحِرٌ اَوْ مُجْتَوِنٌ. اَتَوٰصُوٓا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طٰغُوْنَ﴾ [الندرات: ٥٢، ٥٣].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أى: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل. أما الأول: فكان لاجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثانى: فللملة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكى يتشاءموا بموسى، عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿أَوْذِيْنَا مِنْ قَبْلِ اَنْ تَأْتِيْنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ اَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْاَرْضِ فَيَنظُرَكُمْ كَيْفَ تَقْعَلُوْنَ﴾ [الاحراف: ١٢٩]. قال قتادة: هذا أمر بعد أمر. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ اِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ أى: وما مكروهم وقصدهم الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لتلا ينصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك فى ضلال.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُوٓىٔ اَقْتُلْ مُوسٰى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾: وهذا عزم من فرعون - لعنه الله - على قتل موسى، عليه السلام، أى: قال لقومه: دعونى حتى اقتل لكم هذا ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أى: لا أبالى منه. وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والمناد. وقوله - قبحه الله: ﴿اِنِّىٓ اَخَافُ اَنْ يُبَدِّلَ دِيْنَكُمْ اَوْ اَنْ يُظْهِرَ فِى الْاَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يعنى: موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال فى

المثل: «صار فرعون مذكراً»، يعنى: واعظاً، يشفق على الناس من موسى، عليه السلام. وقرأ الاكثرون: «أن يدلل دينكم وان يظهر فى الارض الفساد» وقرأ آخرون: «أو أن يظهر فى الأرض الفساد» وقرأ بعضهم: «يظهر فى الأرض الفساد»، بالضم.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى : لما بلغه قول فرعون : ﴿ فَرَوْنِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ قال موسى : استجرتُ بالله وعُذتُ به من شره وشر أمثاله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أيها المخاطبون ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أى : عن الحق ، مجرم ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ؛ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال : «اللهم ، إنا نعوذ بك من شرورهم ، وندرا بك فى نحورهم » (١) .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُولُ لَكُمْ أَلَمْ تَكُنْ أَلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون . واختاره ابن جرير ، وردَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً ؛ لأن فرعون انفعّل لكلامه واستمعه ، وكف عن قتل موسى ، عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لا وشك أن يعاجل بالعقوبة ؛ لأنه منهم . وقال ابن عباس : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة لاوشك ، والذى قال : « يا موسى إن الملأ يأترونك بك ليفتوك » [النقص : ٢٠] . وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ فَرَوْنِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ ، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل ، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (٢) ، كما ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون ، وهى قوله : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ، اللهم إلا ما رواه البخارى عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد شىء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ ، قال : بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر ، رضى الله عنه ، فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ، ثم قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ . انفرد به البخارى (٣) .

وقوله : ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى : كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول : «ربى الله» ، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم فى المخاطبة فقال : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ يعنى : إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ، فمن العقل

(١) المسند (٤/٤١٤) ، والحاكم فى المستدرک (٢/١٤٢) وقال : «حديث صحيح على شرط الشيخين وأكبر ظنى أنهما لم يخرجاه» ووافقه الذهبى .

(٢) أبو داود (٤٣٤٤) والترمذى (٢١٧٤) وقال : «غريب من هذا الوجه» ، وصححه الألبانى .

(٣) البخارى (٤٨١٥) .

والرأى التام والحزم أن تركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذبا فإن الله سيجاريه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقا وقد أذيتموه يصيبكم بعض الذى يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه .

وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى، عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه الموادة فى قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُوا إِلَيْنَا عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّيَ وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجِعُونَ . وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ﴾ [الدخان : ١٧ - ٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله عباد الله، ولا يمسه بسوء، ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك أذيته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] أى: إلا ألا تؤذونى فيما بينى وبينكم من القرابة، فلا تؤذونى وتتركوا بينى وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً مبيناً. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ أى: لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله، كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله .

ثم قال المؤمن محضاً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أى: لا تغنى عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أردانا بسوء، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه، راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أى: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بِهَا أَسْتِقْنَتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أُنذِرُكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى: وما أذعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضا فى ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ فِرْعَوْنَ قَوْمَةٌ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]، وفى الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيته، إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام» (١).

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقَوِرَ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿١٠١﴾ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿١٠٢﴾ وَيَنْقَوِرَ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ تُولُونَ مُدْرِرِينَ مَا

لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ كَبُرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٢﴾

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس الله في الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وهاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فاتفق فيهم قدره.

ثم قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّادِ﴾ يعني: يوم القيامة وسمى بذلك، قال بعضهم: لما جاء في حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتمت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هارين ينادى بعضهم بعضا. وقال آخرون، منهم الضحاك: بل ذلك إذا جرى بجهنم، ذهب الناس هرابا، فتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَلَمَلْنَا عَلَىٰ أَرْجَائِهِمْ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتِغْتَمْتُمْ أَنْ تَفْخَرُوا مِنَ أَنْفَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفَعُوا لَا تَفْخَرُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]. وقد روى عن ابن عباس، والحسن، والضحاك: أنهم قرؤوا: ﴿يوم التئاد﴾، بتشديد الدال، من ند البعير: إذا شرد وذهب. وقيل: لأن الميزان عنده ملك، وإذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف عمله نادى: ألا قد شقى فلان بن فلان. وقال قتادة: ينادى كل قوم بأعمالهم: ينادى أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار. وقيل: سمي بذلك لمنادة أهل الجنة أهل النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومنادة أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَلْبِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمُهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولمنادة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور في سورة الأعراف. واختار البغوي وغيره: أنه سمي بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله اعلم.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُذْبِرِينَ﴾ أي: ذاهبين هارين، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ [القيامة: ١١]، [١٢]، ولهذا قال: ﴿يَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ﴾ أي: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضله الله فلا هادي له غيره.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى، وهو يوسف، عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط (١)، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، ولهذا قال: ﴿لَمَّا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا﴾ أي: يشتم فقلتم طامعين: ﴿لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا﴾ وذلك لكفرهم

(١) حرفت في المطبوعة إلى: «بالقسط»، والثبت من المخطوطة.

وتكذيبهم ﴿كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ مَنْ هُوَ سُورٌ مُرْتَابٌ﴾ أى : كحالكم هنا يكون حال من يضلله الله لإسرافه فى أفعاله وارتباب قلبه .

ثم قال : ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنْتَهُمْ﴾ أى : الذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجة بغير دليل وحجة معهم من الله ، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى : والمؤمنون أيضا يُبغضون من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه ، فلا يعرف بمد ذلك معروفًا ، ولا يتكر منكرا ؛ ولهذا قال : ﴿كَذَلِكَ يُطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ﴾ أى : على اتباع الحق ﴿جبار﴾ .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُنَّ آيَاتِي صِرْحًا لَعَلِّي أَتْلُعُ الْأَسْبَابَ﴾ ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلِعْ إِلَىٰ آلِهَةِ مُوسَىٰ﴾ وَإِنِّي لِأَطَّلِعُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون ، وعتوه ، ومجرده ، واقتراته فى تكذيبه موسى ، عليه السلام ، أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا ، وهو : القصر العالى المنيف الشاهق . وكان اتخاذه من الأجر المضروب من الطين المشوى ، كما قال تعالى : ﴿فَأَوْفِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ [القصر : ٣٨] .

وقوله : ﴿لَعَلِّي أَتْلُعُ الْأَسْبَابَ . آسَابَ السَّمَوَاتِ﴾ قال سعيد بن جبير ، وأبو صالح : أبواب السموات . وقيل : طرق السموات ﴿فَاطَّلِعْ إِلَىٰ آلِهَةِ مُوسَىٰ﴾ وهذا من كفره ومجرده ، أنه كذب موسى ، عليه السلام فى أن الله ، عز وجل ، أرسله إليه ، قال الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنُ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أى : بصنيعه هذا الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى ، عليه السلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ . يعنى : إلا فى خسار .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَنْقُورُ أَتَمَّعُوا هَدِيَّتَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿يَنْقُورُ﴾ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٣٩﴾

يقول المؤمن لقومه عن تمرد وطنى وأثر الحياة الدنيا ، ونسى الجبار الأعلى ، فقال لهم : ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ، لا كما كذب فرعون فى قوله : ﴿وَمَا أهدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ . ثم ردهم فى الدنيا التى آتروها على الآخرة ، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه السلام ، فقال : ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أى : قليلة رائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أى : الدار التى لا روال لها ، ولا انتقال منها ولا ظمن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ولهذا قال : ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أى : واحدة مثلها ، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى : لا يتقدر بجزاء بل يشبهه الله ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاذ .

﴿وَيَنْقُورُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ ربيع وَأَشْرِكُ بِهِ ، مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْقَهْرِ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ

دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤١﴾
 فَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٢﴾ فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ
 مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٣﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
 أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٤﴾

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه ﴿وتدعونني إلى النار. تدعونني لأكثر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم﴾ ؟ أى: جهل بلا دليل ﴿وإننا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ أى: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لا جرم أنما تدعونني إليه﴾ يقول: حقا. قال السدى، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لا جرم﴾: حقا. وقال الضحاك: ﴿لا جرم﴾: لا كذب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لا جرم﴾، يقول: بلى، إن الذي تدعونني إليه من الاصنام والانداد ﴿ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ قال مجاهد: الوثن ليس بشيء. وقال قتادة: معنى الوثن، لا ينفع ولا يضر. وقال السدى: لا يجيب داعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهذا كقوله تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الاحقاف: ٥، ٦]، ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ [فاطر: ١٤].

وقوله: ﴿وإن مردنا إلى الله﴾ أى: في الدار الآخرة، فيجازى كلا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وإن المسرفين هم أصحاب النار﴾ أى: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله. ﴿فتذكرون ما أقول لكم﴾ أى: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعمكم الندم، ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أى: واتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ أى: هو بصير بهم، فيهدى من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله: ﴿فوقه الله سيئات ما مكروا﴾ أى: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما في الآخرة فبالجنة ﴿وحاق بال فرعون سوء العذاب﴾ وهو: الفرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار؛ ولهذا قال: ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ أى: أشده لما وأعظمه تكالفا. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: ﴿النار تعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا﴾.

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لاشك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة؛ أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ على فقالت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعم ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا تصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر. قال: «كذبت يهود. وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار

مشمثلا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادى بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكىتم كثيرا وضحكتم قليلا. أيها الناس، استعذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق». وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم، ولم يخرجاه (١). وروى أحمد عن عائشة قالت: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وإنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم». وهذا أيضا على شرطهما (٢).

فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غدوا وعشيا فى البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتأله بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية الآتى ذكرها.

وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب المكخار فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنوب، وما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد عن عائشة، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهى تقول: أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود». قالت عائشة: فليتنا ليلالى، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعذ من عذاب القبر. وهكذا رواه مسلم (٣).

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد فى قبورها، فلما أوحى إليه فى ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. وقد روى البخارى، عن عائشة، أن يهودية دخلت عليها فقالت: تعوذ بالله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر (٤). فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية فى هذا الخبر، وقرر عليه. وفى الاخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا.

وقال قتادة فى قوله: «غَدُوا وَعَشِيًّا»: صباحا ومساء، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبخا ونقمة وصعآرا لهم. وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغْدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة. وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغدوة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله، عز وجل، إلى يوم القيامة». أخرجاه فى الصحيحين (٥).

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ قِيْقُولُ الصَّمْعَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ

(١) المسند (٦ / ٥٣).

(٢) المسند (٦ / ٢٣٨).

(٣) المسند (٦ / ٢٤٨) مسلم (٥٨٤ / ١٢٣).

(٤) البخارى (١٣٧٢).

(٥) المسند (٥٩٢٦) والبخارى (١٣٧٩) مسلم (٦٥ / ٢٨٦٦).

مُغْتَوِبَاتٍ مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّحَكَم بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِمْ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَئِكَ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن نجاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جعلتهم ﴿فَقَوْلُ الْعُفَّاءِ﴾ وهم: الاتباع ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم: القادة والسادة والكبراء: ﴿إِنَّا كُلُّكُمْ تَمَّا﴾ أي: اطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُغْتَوِبُونَ عَنَّا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ﴾ أي: قسما تتحملونه عنا. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدَّحَكَم بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ حِجْفٍ وَلَكِنْ لَا تَقْمُونَ﴾ [المراد: ٣٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِمْ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾: لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿اسْأَلُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سألو الخزنة - وهم كالبوابين (١) لأهل النار - أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوما واحدا من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَو لَمْ تَك تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إلا من ذهب، لا يتقبل ولا يستجاب.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ﴾ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَقْفِرْ لِدُنْيَاكَ وَسَيِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْمَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقِرُّ سُلْطَانُ أَتْنَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِيغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

قد أورد أبو جعفر بن جرير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالا فقال: قد علم أن بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قتله قومه بالكلية كيحيى وذكر ياشعيا (٢)، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاما، والمراد به البعض، قال: وهذا مانع في اللغة.

الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم عن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم

(١) في المطبوعة: «كالسجائين» والثبت من المخطوطة.

(٢) في المطبوعة حرفت إلى «شعيا» والثبت من المخطوطة.

أو بعد موتهم، كما فُعلَ بقتلة يحيى وزكريا وشعيا (١)، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماهم، وقد ذكر أن النمرود أخذَه اللهُ أخذَ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح، عليه السلام، من اليهود، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماما عادلا، وحكما مقسطا، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم من أذاهم، ففي صحيح البخارى عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب» (٢) ؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباهم وأضرابهم، ممن كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحدا، وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحدا. قال السدى: لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الانبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا، وهم منصورون فيها.

وهكذا نصر الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناواه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخلطهم له، وقتل صنائديهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودخل الناس في دين الله أفواجا. ثم قبضه الله، تعالى، إليه، لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ أى: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل. قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة (٣).

وقوله: ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ ﴾ بدل من قوله: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾. وقرا آخرون: «يَوْمٌ»

(١) في المطبعة حرفت إلى «شعيبا» والثبت من المخطوطة .

(٢) البخارى (٦٥٠٢) .

(٣) قلت: أين المسلمون الآن من هذه الآية ؟ لقد ضاعت كل هذه الانتصارات والفتوحات من أيدي المسلمين، ونُحى الإسلام من هذه الديار، وترأس الإلحاد وماذاك إلا بتكالب المسلمين على الدنيا، وحبها، وما ألقى في قلوبهم من الرهن، فكانوا لقمة سائفة في يد أعدائهم، وتكالت عليهم الأمم حتى أمون خلق الله على الله وهم اليهود !! ولن تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها من التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونبد الفرقة والتعاون على البر والتقوى، وعدم موالاة أعداء الله، والأخذ بأسباب التمكين في الأرض، ولينصرن الله من ينصره، والله غالب على أمره. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

بالرفع، كأنه فسره به ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ﴾، وهم المشركون ﴿مَعَذَّرْتَهُمْ﴾ أى: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَلَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أى: الإبعاد والطرده من الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهى النار. قاله السدى، بنس المنزل والمقيل. وقال ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أى: سوء العاقبة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾: وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور، ﴿وَأَوْوَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أى: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى، عليه السلام، وفى الكتاب الذى أورثوه - وهو التوراة - ﴿هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ وهى: العقول الصحيحة السليمة.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أى: يا محمد ﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ﴾ أى: وعدناك أنا سنعلى كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولن تبطل، والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذى أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك.

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾: هذا تهيج للامة على الاستغفار ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ﴾ أى: فى أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ وهى أوائل النهار وأواخر الليل.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ أى: ما فى صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿فَلَا تَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ﴾ أى: من حال مثل هؤلاء، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أو: من شر مثل هؤلاء المجادلين فى آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾
وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾
﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى منها على أنه يعيد الخلاق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه - بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدءاً وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ [وَلَمْ يَخُنْ بِخَلْقِهِنَّ] (١) بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْبِيَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، ويتكرون المعاد، استبعاداً وكفراً وعناداً، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أى: كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أى: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس. ثم

(١) ما بين المعرفتين سقط من المخطوطة.

قال : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ ﴾ أى : لكائنة وواقعة ، ﴿ لَا رَبَّ فِيهَا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : لا يصدقون بها ، بل يكذبون بوجودها .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

هذا من فضله ، تبارك وتعالى ، وكرمه : أنه ندب عباده إلى دعائه ، وتكفل لهم بالإجابة ، كما كان سفيان الثورى يقول : يا مَنْ أَحَبُّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَكُتِرَ سؤَالُهُ ، ويا مَنْ أَبْغَضَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ ، وليس أحد كذلك غيرك يارب . روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ» ، ثم قرأ : «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» . ورواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وقال الترمذى : حسن صحيح . ورواه أبو داود ، وابن حبان والحاكم فى صحيحيهما ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ لَمْ يَدْعُ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ» (٢) . وهذا إسناد لا بأس به .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ أى : عن دعائى وتوحيدي ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أى : صاغرين حقيرين ، كما روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب ، عن أبىه ، عن جده ، عن النبى ﷺ قال : « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الْفَرَ ، فِي صُورِ النَّاسِ ، يَعْلَمُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ، حَتَّى يَدْخُلُوا سَجَنًا فِي جَهَنَّمَ - يُقَالُ لَهُ : بُولَس - تَعْلَمُهُمْ نَارُ الْآبِيَارِ ، يَقُونَ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ : عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ » (٣) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِ تَوَفَّكُونَ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ يُؤَفِّقُ الَّذِينَ كَانُوا يَإْتُونَ اللَّهَ يَجْحَدُونَ ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَارَا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

يقول تعالى ممثنا على خلقه ، بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم فى المعاش بالنهار ، وجعل النهار مبصرا ، أى : مضيئا ، ليصرفوا فيه بالأسفار ، وقطع الأقطار ، والتمكن من الصناعات ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أى : لا يقومون بشكر نعم الله عليهم . ثم قال : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : الذى فعل هذه الأشياء هو الله

(١) المسند (٢٧١ / ٤) والترمذى (٢٩٦٩ ، ٣٣٧٢) والنسائى فى الكبرى (١١٤٦٤) وابن ماجه (٣٨٢٨) وابن حبان فى صحيحه (٢٣٩٦ موارد) والحاكم فى المستدرک (٤٩١ / ١) وابن جرير فى التفسير : (٥١ / ٢٤) .

(٢) المسند (٤٧٧ / ٢) .

(٣) المسند (٦٦٧٧) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» .

الواحد الاحد، خالق الاشياء، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿فَأَنزِلْنَا نُورًا﴾ أى: فكيف تعبدون غيره من الاصنام، التي لا تخلق شيئا، بل هي مخلوقة منحوتة. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤَلِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجعلوا حجج الله وآياته.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى: جعلها مستقرا لكم، بساطا مهادا تعيشون عليها، وتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لثلا تميد بكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أى: سقفا للعالَم محفوظا، ﴿وَوَصَّوْرَكُمْ فَاخْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أى: فخلقكم فى احسن الاشكال، ومنحكم اكمل الصور فى احسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المأكَل والمشارب فى الدنيا. فذكر انه خلق الدار، والسكان، والارزاق - فهو الخالق الرازق، كما قال فى سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْهَرُوا لَهُ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَطْمَئِنُّونَ﴾ [البقرة: ٢٠، ٢١] وقال هاهنا بعد خلق هذه الاشياء: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أى: فتعالى وتقدس وتزه رب العالمين كلهم.

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: هو الحى ازلا وابدأ، لم يزل ولا يزال، وهو الاول والاخر، والظاهر والباطن، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: لا نظير له ولا عدل له، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: موحدين له مقربين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: «لا إله إلا الله» أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملا بهذه الآية. ثم روى عن ابن عباس قال: من قال: «لا إله إلا الله» فليقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» فذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. روى الإمام أحمد عن محمد بن مسلم بن بدر المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». قال: وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي (١).

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رَأْبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجْلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يعبد أحد سواه من الاصنام والانداد والاولئان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رَأْبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أى: هو الذى يقبلكم فى هذه الاطوار كلها،

وحده لا شريك له، وعن أمره وتدييره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوبُ مِنْ قَبْلِ﴾ أى: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوب صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله ﴿لَنْبَيْنَ لَكُمْ وَيُغْفِرُ لِي الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج : ٥] وقال هاهنا : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : تتذكرون البعث.

ثم قال : ﴿هُوَ الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُعْجِبُ﴾ أى: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أى: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان .

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي مَائِنَتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يَصْرِفُونَ﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآلِ كِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رَسُولًا فَسَوفَ يَعْلَمُونَ ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَغْطِقِهِمْ وَالسَّلَابِلُ يُسْحَبُونَ﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنَّىٰ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فإِن مَّ سَأَلْتُمُوهُنَّ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق بالباطل، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رَسُولًا﴾ أى: من الهدى والبيان، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: هذا تهديد شديد، ووعد أكيد، من الرب، جل جلاله، لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] .

وقوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَغْطِقِهِمْ وَالسَّلَابِلُ﴾ أى: متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الحميم، ولهذا قال: ﴿يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾، كما قال: ﴿هَلْ جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤] . وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَمِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨] وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّجَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّجَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظَلَمَ مِنْ حَمِيمٍ. لَا يَارِدُ وَلَا كَرِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنهَى الْعَالَمُونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَا يَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ. فَمَالَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَنَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَنَارِبُونَ شَرْبَ الْهَمِيمِ. هَذَا نَزَلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٤١-٥٦] . وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ. طَعَامُ الْأُنثَى. كَالْمَهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَفَلَى الْحَمِيمِ. خَلَدُوهُ فَأَعْظُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَمِيمِ. ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ. إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠]، أى: قال لهم ذلك على وجه التقرع والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهمك والاستهزاء بهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنَّىٰ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أى: ذهبوا فلم يفتنعونا، ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أى: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ نَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أى: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، وفرحكم وأشركم وبطركم، ﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فإِن مَّ سَأَلْتُمُوهُنَّ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: فبئس

المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحججه.

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿فَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: فى الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظماهم، أيدوا فى يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى أيام حياته ﷺ وقوله: ﴿أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ أى: فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة.

ثم قال مسلما له: ﴿وَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال فى «سورة النساء» سواء، أى: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسول العاقبة والنصرة، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك فى سورة النساء (١)، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له فى ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةَ فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَتُرِيدُكُمْ أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَعْيُنُ أَنْ تَبْسُطُوا أَلْسِنَتَهُمْ تَكْفُورًا ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى تمتنا على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الانتقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحث عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها. والجميع تمز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منه الأثاث والياب والامتعة، ولهذا قال هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾. ولَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةَ فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ. وقوله: ﴿وَتُرِيدُكُمْ أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَعْيُنُ﴾ أى: حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم، ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾؟ أى: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَانَسَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحَدِّمْ

وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ. وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما آثروه في الأرض، وجمعه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغفروا بما عندهم من العلم في رجمهم عما جاءتهم به الرسل. قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب. وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فاتاهم من بأس الله ما لا قبل لهم به. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقَال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله تعالى: ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾؟ [يونس: ٩١] أي: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبية موسى دعاءه عليه حين قال: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. وهاهنا قال: ﴿فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ. (١) أي: فإذا فرغ وبلغت الروح الحنجرة، وعاین الملك، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

(١) الترمذی (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٢) ، وحسنه الألبانی .